ظواهـر حداثيــة

في

أدب (أيام العرب في الجاهلية)

"القصة لقصيرة والأقصوصة"

دراسة في التركيب القصصي وأسلوب الصياغة

دكــتور

محــمود رزق حامـــد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

الملخص

إن أيام العرب جزء من الرصيد الثقافي العربي، لما لها من منهجية خاصة اتبعها الرواة في تأليف هذه النصوص، وفي رصدها وتصويرها للمجتمع الجاهلي في سلمه وحربه على ما تقتضيه طبيعة البداوة، ولما لها من شأن كبير عند المؤرخين العرب الأولين، الذين كانوا يصعدون في تأريخهم لحياة العرب إلى البشرية الأولى، إلى العماليق وعاد وثمود، ويعرِّجون نزولاً على أخبار طسم وجديس وغيرهما من القبائل التي بادت، ثم يهتمون بالقبائل القائمة فيدرجون أيامها في صلب التاريخ ويفصلون أحداثها بنفس العناية التي يولونها للفتوحات والمغازي الإسلامية، أو حتى أخبار العصور والدول المتقدمة من عمر الإسلام كالدولة الأموية والعباسية.

وأن اهتمام المؤرخين بروايات الأيام لا يجبرنا -بالضرورة- على تقبلها منهم كما وردت، وتصديق كل ما ترويه لنا من أسباب الحروب أو نتائجها، وتشعب الأحداث وتفاصيلها، كما لو كانت تاريخاً مرتباً مضبوطاً، في نصوص شبه تاريخية تقع في مرحلة وسط بين الأسطورة والحقيقة، لأنها -كثيراً- تميل إلى الإبهام والتضخيم' إلا أنها -في المجمل- تعطينا صورة أولية عن المجتمع الجاهلي ، هذه الصورة تواصلت ملامحها في المجتمع الإسلامي الأول بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-مباشرة، حين عادت العصبيات القديمة إلى شدتها، وصار التنافس على الحكم يوقظ ويغذي الإحن والأحقاد الدفينة التي كانت تمزق العرب بين قيسية ويمنية، وتميمية وبكرية

Summary

The Arab days are part of the Arab cultural balance, because of their special methodology followed by the narrators in the composition of these texts, and in their monitoring and portrayal of the pre-Islamic society in its peace and war on what is required by the nature of the Bedouin, and because of its great interest among the first Arab historians who were ascending in their history To the Arabs, to the first mankind, to the Amalekites, and to Thamud, and to limp down to the news of Tasim and Jiddis and other tribes that have been destroyed. Then they are concerned with the tribes that exist. They take their days at the heart of history and separate their events with the same care they give to Islamic conquests and mages, Of the life of Islam as the state Umayyad and Abbasid.

And the interest of historians in the narratives of the days does not necessarily force us to accept them as they were received, and to believe all that you tell us of the causes of war or its consequences, and the complexity of the events and their details, as if they were a fixed salary history, Because it is - often - tends to thumb and exaggeration 'but it - in total - give us a preliminary image of the community of ignorance, this image continued its features in the Muslim community after the first death of the Prophet - peace be upon him - directly, when the old gangs to the intensity, On the judgment awakens and nourishes the hatred and the hidden hatreds The rupture between Arabs Qaysih and Yemeni, and Tmimah and Bakrah

مقدمـة

الحمد لله رب العالمين، الأول بلا بداية قبل الليالي والأيام، والآخر بلا نهاية بعد فناء الأنام، والصلاة والسلام على خير نبيٍ أرسل بخير كتاب أُنزل، وجعلنا الله به وبالإسلام خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر ، ونؤمن بالله، وقص – سبحانه– في كتابه على نبيه أحسن القصص فقال :(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)[١] ، وقال –عز وجل– مخاطباً موسى:(وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ)[٢] ...وبعد

فإن تحديد تاريخ نشوء الحداثة ومكانه، من الصعوبات التي واجهت النقاد كثيراً، لما يكتنفها من غموض لا تستبين معه جذورها الأولى على امتداد التاريخ الأدبي، إلا أن (الغالبية منهم يتفقون على أن تاريخها يبدأ منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ...)[٣] قرن الحركات العارمة .

وللحداثة مفاهيم لا تحدها جغرافية المكان، وكذلك الزمان، وأصبح إطلاق وصف الحداثة أو الحداثية أمراً مستباحاً ومجانياً أحياناً، مما صعَّب تحديد الهدف من إطلاق الوصف .

على العموم فإن وسم الدراسة بـ(ظواهر حداثية ...) عنيت به وجود أكثر من ظاهرة وأكثر من فن أدبي جديد (حديث) على رأي من قال إن هذه الفنون حديثة، وأنها في صورتها الأخيرة غير عربية، وإن كان البعض الآخر قد انبرى للرد على ذلك والدفاع عن وجودها وأصولها العربية بما ليس للحديث مجال عنه الآن .

---

(١) سورة يوسف آية ٣ .
(٢) سورة إبراهيم آية ٥ .
(٣) معضلة مفهوم الحداثة من منظور مقارن –جهاد عودة صـ٩ الناشر المكتب العربي للمعارف .

وأقصد بالظواهر الحداثية والفنون هنا تحديداً (القصة القصيرة والأقصوصة) بوصفها ظواهر جديدة حديثة في أدبنا العربي، إلا أن طريقة الرواة لأيام العرب ولأحداثها بطريقة معينة جعلت منها صورة لا تختلف كثيراً ولا قليلاً عن هذه الفنون، وهو ما سوف يستبين خلال البحث والدراسة بعون الله .

وجاءت الدراسة محتوية على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

فالمقدمة : جاء فيها ضبط المصطلح (ظواهر حداثية)، وتفصيل أجزاء الدراسة .

أما التمهيد فجاء فيه التعريف بأيام العرب ، ومعناها والمقصود بها .

أما الفصل الأول فعنوانه : فنا القصة القصيرة والأقصوصة ومقوماتهما في روايات (أيام العرب الجاهلية) .

وجاء الفصل الثاني بعنوان : عناصر القصة في أيام العرب الجاهلية .

ثم كان الفصل الثالث بعنوان : الصياغة الفنية في قصص أيام العرب الجاهلية .

ثم الخاتمة : وفيها بعض النتائج والاستخلاصات .

وأيام العرب قسمان : جاهلي وإسلامي ، وقد اقتصرت الدراسة على القسم الأول منها، كما سيأتي سبب ذلك- إن شاء الله – في التمهيد .

والله الموفق والمستعان

د. محمود رزق حامد

تمهـيد

أيام العرب تعني الوقائع والحروب التي كانت تدور بين قبائل العرب أنفسهم، أو بين قبائل العرب وغيرهم من الأمم والأجناس الأخرى كالفرس وغيرهم، ثم اتسع مدلول الكلمة (أيام العرب) لتشمل الفتوح والمغازي في العصر الإسلامي ، فصار كتَّاب السِّير يقولون يوم القادسية، يوم اليرموك....إلخ قياساً على الأيام الجاهلية .

فمما دار من وقائع وأيام بين قبائل العرب أنفسهم: داحس والغبراء، البسوس، النفراوات، الكديد، ويوم بعاث، كذلك ما حدث بين الأوس والخزرج .

ومما وقع بين العرب وغيرهم كالفرس: يوم الصفقة، ويوم ذي قار الذي انتصرت فيه العرب على كسرى ومن والاه من قبائل العرب الأخرى .

أما ما جاء في العصر الإسلامي؛ فقد درج أصحاب السِّير -كما سبق- وأصحاب المغازي يقولون يوم بدر، ويوم أُحد، ويوم الأحزاب ، ولا غرو فقد قال الله -تعالى- :(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...)[1] ، فالأيام إذن تعني الحروب، كما تعني الشدائد والمحن ، يقول الزمخشري في تفسير قوله -تعالى- :(وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ...)[2] أي أنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ويوم الفجار وغيرها[3] .

(١) سورة التوبة آية ٢٥ .
(٢) سورة إبراهيم آية ٥ .
(٣) تفسير الكشاف- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ٢/ ٣٦١ ط مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٦٦.

والأيام تعني أيضا: النصوص المكتوبة التي تروي تلك الحروب، يقول ابن منظور في (لسان العرب) مادة "يوم" نقلا عن ابن السكِّيت بعد أن أقر معنى الحروب والوقائع للفظ الأيام:(وإنما خصوا الأيام دون الليالي في الوقائع لأن حروبهم كانت نهاراً)[1].

وأدب أيام العرب المعنِي به أيضا : مجموع تلك النصوص التي دونت فيها تلك الوقائع والحروب، والتي أُخذت مشافهة من الرواة قديماً، أو التي سُمعت ودونت في حلقات أشهر المدارس قديماً (مدرستي البصرة والكوفة)، ثم جمعت أخيراً في موسوعات وكتب كبيرة من أمثال : الأغاني لأبي الفرج، العقد الفريد لابن عبد ربه، أو ما جاء عند أبي عبيدة في نقائض جرير والفرزدق، وعند الطبري وابن الأثير، وكذا ما جاء في صبح الأعشى للقلقشندي، أو ما جاء عند النويري في نهاية الأرب، أو عند الميداني في مجمع الأمثال[2]....الخ .

وأخيراً انتقى محمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم من هذه المصادر مجتمعة مادة لكتابين مهمين، نُشر الأول تحت عنوان (أيام العرب في الجاهلية) ونشر الثاني تحت عنوان (أيام العرب في الإسلام) .

وهذه الدراسة سوف تعتمد على الكتاب الأول فقط (أيام العرب في الجاهلية)، فهو كفيل بأن يغني الدراسة ويجعل فيها شيئاً من التفصيل، وألا تتحول الدراسة إلى نوع من الإجمال أو الطي السريع للأحداث، أو رؤوس الأقلام –كما يقولون– كتلك المذكرات التي تصنع للطلاب .

(١) لسان العرب – جمال الدين بن منظور الإفريقي ٦/ ١٥٦٣ ط دار المعارف .
(٢) باعتبار أن كثيراً من أمثال العرب السائرة كانت وليدة تلك الوقائع والأيام .

كما أن دوافع الحروب وطرق القتال، وأنواع العلاقات والعصبيات في الكتاب الأول مختلفة اختلافاً كبيراً عنها في الكتاب الثاني، إذ لم تزل الدوافع في الأول فطرية عفوية بدائية لم تطبع بعد بالطابع الإيماني ولا بالنزعة التوحيدية، أو التفنن في طرق القتال وعصبياته التي جاء بها الإسلام في الثاني .

وأدب أيام العرب هو أول نموذج للنثر القصصي العربي بمعناه (الدرامي) : أي تشابك الأحداث وتسلسلها من المقدمة وصولاً إلى العقدة، وانتهاءً بالانفراجة، مع ولوج لتحليل بعض نفسيات أبطال الوقائع أحياناً، وإيقاف القارئ وإشعاره بالعبرة الأخلاقية الإنسانية التي يحسن له أن يستخلصها من تصرفاتهم .

فأيام العرب من هذه الناحية قصص حربي جدير بأن يدرس من جهتي الشكل والمضمون، في معانيه السامية، وأبعاده الخلقية العميقة، وفي خياله الطريف، وفي لغته الجزلة، وأساليبه التعبيرية المتنوعة، لا سيما في سره للحوادث وترتيبها، وإدراجها على ما يقتضي التشويق والإثارة القصصية .

كما أن (أيام العرب) مصدر مهم من مصادر الشعر، إذ يمتزج النثر في نصوصها بالشعر الذي قيل في الوقائع فخراً، أو نصراً، أو توعداً، أو تفجعاً، أو وصفاً للقتال ، فغدت (الأيام) من هذه الناحية من أهم مصادر الشعر الجاهلي .

كما لا تخلو دراسة (الأيام) من فوائد اجتماعية تاريخية من ناحية تصوير التنافس القبلي على أسباب المعيشة، أو الافتخار بخلو النسب من الهجنة، أو المعتقد الديني، أو العادات في السلم والحرب، أو القرابات والأخلاق ...مما يعطي صورة جلية عن المجتمع الجاهلي على ما تقتضيه طبيعة البداوة .

الفصل الأول

فن القصة ومقوماته في روايات (أيام العرب في الجاهلية)

يقول ابن منظور في اللسان :(القصُّ: اتباع الأثر، والقاص يقص القصص لإتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقاً)[١] ،وهذا المعنى الذي ذكره ابن منظور يتمشى مع ما سبق ذكره من أن أدب أيام العرب أول نموذج للنثر القصصي العربي بمعناه المتشابك والمتسلسل من بداية الأحداث حتى نهايتها .

يقول الزمخشري–مؤكداً هذا المعنى للقص– في تفسيره لقوله –تعالى– :(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)[٢] ،أي اتبعي أثره وتتبعي خبره[٣] ،وهو المعنى الغالب في معظم التفاسير من اتباع الأثر ومعرفة ما يصنع به، واستماع ذكره بين الناس، أحي هو أم أكلته دواب البحر .

ويقول في تفسير قوله –تعالى–:(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)[٤]؛ قص الحديث يقصه قصاً إذا طرده، والطرد للإبل هو ضمها بعضها إلى بعض وسوقها[٥]، جاء في أيام العرب في الجاهلية في يوم (داحس)، لما اقتاد قيس بن زهير (سيد عبس) جمل أم الربيع فاطمة بنت الخرشب الأنمارية يريد أن يرتهنها

(١) لسان العرب ١١٤٣/٥ .
(٢) سورة القصص آية ١١ .
(٣) تفسير الكشاف ٣/ ١٦٧ .
(٤) سورة يوسف آية ٣ .
(٥) تفسير الكشاف ١٦٨/٣ .

بالدرع، وقالت له ما قالت (فعرف قيس ما قالت له، فخلى سبيلها، واطرد الإبل وسار بها إلى مكة ...)[١] .

فالقصة في أساس تعريفها : هي تتبعٌ وموالاة واطراد في سرد الأحداث، وفي محاولة لتمثيل الحوادث بواسطة الكلام سواء المقول، أو المكتوب أو المشار إليه برموز أو حتى بصور متحركة حتى وإن كانت غير ناطقة، ومعلوم أن هذا التتبع بالمحاكاة الكلامية هو السرد، والسرد –أيضا– تتابع وموالاة، ومنه الحديث: كان يَسْرُد الصوم سَرْداً؛ وفي الحديث: أن رجلاً قال لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: إني أَسْرُد الصيام في السفر، فقال: إن شئت فصم وإن شئت فأفطر، وقيل لأَعرابي: أَتعرف الأَشهر الحرم؟ فقال: نعم، واحد فَرْدٌ وثلاثة سَرْد ، وفي صفة كلامه –صلى الله عليه وسلم– لم يكن يَسْرُد الحديث سرداً أَي يتابعه ويستعجل فيه [٢] .

فإذا كان السرد حدثاً فردياً، أو عاطفة فردية؛ كان النص قصيراً أو "أقصوصة"، وإذا كان جملة من الأحداث المتسلسلة المتتابعة المتشابكة أو المتشعبة كان النص أطول وهو ما يسمى "القصة القصيرة" .

فالقصة القصيرة : فن أدبي نثري يكتفي بتصوير جانب من جوانب الحياة لفرد، أو يصور موقفاً واحداً من المواقف تصويراً مكثفاً يساير روح العصر الحديث من سرعة وتركيز .أو هي : سرد حكائي نثري أقصر من الرواية، تهدف إلى تقديم حدث

(١) أيام العرب في الجاهلية – محمد جاد المولى، علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، صـ٢٤٨ ط المكتبة العصرية -بيروت.
(٢) لسان العرب ٥٤١/٣ .

وحيد غالباً ضمن مدة زمنية قصيرة ومكان محدود غالباً لتعبر عن موقف أو جانب من جوانب الحياة [١] بهدف الاهتمام والإثارة والإمتاع والإدهاش .

أما القصة القصيرة جداً أو (الأقصوصة)؛ فهي نوع حديث من الأدب ، انتشر في الفترة المعاصرة بشكل واسع وأصبح نوعاً سردياً قائماً بحد ذاته[٢] ،تعتبر بالحجم أصغر من القصة القصيرة، وقد لا تتجاوز بضعة أسطر، تتجلى أركانها في القصصية والجرأة و الوحدة والتكثيف وفعلية الجملة والسخرية والإدهاش واستخدام الرمز والإيماء والتلميح والإيهام ،والاعتماد على الخاتمة المتوهجة الواخزة المحيرة .

ويجعل بعض النقاد القصة القصيرة والقصيرة جداً (الأقصوصة) فناً واحداً وإن تعددت تسمياته، ويركزون في هذا الفن الأدبي على ملمحين أساسيين هما : قصر الحجم، والنزعة القصصية .

(١) ينظر (تطور فن القصة القصيرة في مصر) سيد حامد النساج صـ١٧،ط مكتبة غريب، و(تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة)خيري دومة ، و(القصة القصيرة في مصر) شكري عياد .

(٢) ينظر مجلة رابطة العالم الإسلامي ، عدد ٢٨ بتاريخ ٢٠١٣/٩/١٧ ، مقال بعنوان (القصة القصيرة جدا-الخصائص والجماليات) .

مقومات القصة في (أيام العرب الجاهلية)

(١) السَّرد

السرد مصدر سرد يسرد، وهو حسب معناه في أغلب المعاجم العربية: تَقْدِمَةُ شيء إِلى شيء تأْتي به متَّسقاً بعضُه في أَثر بعض متتابعا، يقال سَرَد الحديث ونحوه يَسْرُدُه سَرْداً إِذا تابعه، وفلان يَسْرُد الحديث سرداً إِذا كان جَيِّد السياق له، والسرد: اسم جامع للدروع وسائر الحلق، قال الله –عز وجل– :(وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)[١] ،وهو إخبار رواية الحديث أو القصة أو القراءة ، وشيء أو أشياء سرد أي متتابع أو متتابعة [٢] .

أما في الاصطلاح: فالكلمة تعني التتابع وإجادة السياق، وهو ما يتوافق مع المعنى اللغوي للكلمة، وفي الاصطلاح الأدبي ، فإن الكلمة تعني المصطلح الذي يشتمل على قص حدث أو أحداث، أو خبر أو أخبار ، سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال .

والسرد أحد أساليب اللغة التي يتبعها الكتَّاب والأدباء في كتابة القصص والروايات أو المسرحيات؛ لعرض الأحداث المتتابعة ذات الأفكار المنسجمة، وهو أسلوب مرن يشجع على الاسترسال، ويترجم عن سلوكيات الإنسان وأفعاله في أحداث مرتبة متتابعة بين جملها ومعانيها وأفكارها في انسجام يجمع خيطها .

---

(١) سورة سبأ آية ١١ .
(٢) لسان العرب ٥٤١/٣ .

› طرق السرد وأدواته في (أيام العرب):

سرد الأحداث يكون بطريقة من ثلاث :

(أ) **السرد المتسلسل** أو التسلسل والموالاة (الطريقة التقليدية): ويكون ذلك بمولاة الأحداث بطريقة مرتبة طبيعية ، ومثال تلك الطريقة (يوم منْعِج)[1]، ويقال له –أيضا– يوم الردهة ، وملخصه:

أن النعمان بن امرئ القيس –ملك الحيرة– تزوج إلى زهير بن جذيمة العبسي لشرفه وسؤدده، وأرسل إليه يستزيره[2] بعض أولاده، فأرسل إليه زهير ابنه (شأس) ، فأكرمه النعمان وحباه مسكاً وكسوة ... ثم خرج شأس من عنده يريد قومه، فسار حتى ورد منعجاً (وهو ماء لغنى)، فأناخ وأنشأ يغتسل بين ناقته وبيت لرياح بن الأسك الغنوي، وامرأة رياح تنظر إليه، وهو مثل الثور الأبيض، فقال رياح لامرأته: أعطيني قوسي، ورماه بسهم فقتله، ونحر جمله وأكله، وأدخل متاعه بيته .

وفُقد شأس فأقبل أهله يقصُّون أثره، وعلموا أن رياحاً قتله، ولما علم أنهم يطلبونه به فرَّ هارباً، فلحقه أخوا شأس الحصين بن زهير، والحصين بن أسيد بن زهير فجرحاه وقتلهما، وأخذ رحيهما وسلبهما، والتجأ إلى خيمة عجوز وهو جريح قد

(١) هو يوم لعبس على غنى (حي من غطفان)، وتسميته بيوم منعج ترجع لصاحب العقد الفريد، قال أبو عبيدة : ويقال له يوم الردهة، وفي مجمع الأمثال للميداني : لبني يربوع على بني كلاب (ينظر أيام العرب في الجاهلية) صـ ٢٣٠ .
(٢) يطلب زيارة .

مات عطشاً، فلما رأته يستدمي طمعت فيه وأرادت أسره، فقال: دعيني -ويحك- أشرب، فأبت عليه فقتلها، وعبَّ في الماء حتى نهل، ثم توجه إلى قومه[1] .

فالناظر إلى طريقة سرد الأحداث السابقة يجها أحداثاً متتالية متوالية، لا اشتباك فيها ، ولا إدراج (رجوع إلى الوراء)، وقد قامت أحداث القصة على أشخاص معدودين قلائل، منها الشخصيات الأساسية وهي: القاتل "رياح"، وطالب الثأر "أهل شأس"،ومنها الشخصيات الثانوية كشخصية النعمان، وامرأة رياح، والعجوز الخاذلة (صاحبة الخيمة).

(ب) **السرد المتقطع** أو الإدراج (التراجع الخاطف -الخطف خلْفاً)

وفيه يبدأ الكاتب بعرض الحدث في نهايته، ثم يرجع إلى الماضي ليسرد القصة كاملة، أو يكون ذلك بإدخال حدث ثان في الحدث الأول ، ثم الرجوع إلى سرد الحدث الأول، وهي طريقة تستعمل كثيراً في العصر الحديث -لا سيما- في فن السينما في صورة قطع التسلسل والرجوع إلى الماضي لإعلام المشاهد بحادثة قصيرة، أو بموقف معين، لذلك تسمى هذه الطريقة (التراجع الخاطف) أو (الرجوع السريع)، أو بلغة أهل السينما "الفلاش باك" .

ومن السرد بطريقة الإدراج في روايات الأيام : تلك المشاحنة التي حدثت بين قيس بن زهير، والربيع بن زياد سيدَيّ عبس، وذلك بسبب الدرع المغتصبة؛ إذ ابتاع قيس بن زهير درعاً موصوفة تسمى (ذات الحواشي) ليتجهز لقتال بني عامر، ويأخذ بثأر أبيه الذي قتله خالد بن جعفر الكلابي العامري، وعاد قيس إلى قومه

(١) ينظر أيام العرب في الجاهلية صـ٢٣٠ وما بعدها .

وقد فرغ من جهازه، واجتاز بالربيع بن زياد العبسي، ودعاه إلى مساعدته على الأخذ بثأر أبيه، فأجابه إلى ذلك الربيع، ولما أراد قيس فراقه نظر الربيع إلى عيبته[1] وقال له: ما في حقيبتك؟ فقال: متاع عجيب، لو أبصرته لراعك، وأناخ راحلته، وأخرج الدرع من الحقيبة، فأبصرها الربيع فأعجبته، ولبسها فكانت في طوله، فمنعها من قيس، ولم يعطه إياها، وترددت الرسل بينهما في ذلك، ولجَّ قيس في طلبها، ولج الربيع في منعها .

وكان أن استجار قيس بحذيفة بن بدر فأجاروه، وغضب لذلك الربيع لما بينه وبينهم، ثم حدث السباق بين خيل قيس بن زهير، وخيل حذيفة بن بدر، ودارت الحرب (وهي الحادثة الرئيسية) بين عبس وذبيان على إثر تدليس النتيجة إثر السباق بين خيل قيس (داحس والغبراء)، وخيل حذيفة (الخطَّار والحنْفاء) .

وإنما أدرج الراوي خبر المشاحنة بين قيس والربيع؛ لأن قيساً كان يلتمس المساعدة في الأخذ بثأره من جميع رؤساء عبس، وخشي أن يتأخر عنه الربيع بسبب حادثة الدرع، فلما تيقن أن الربيع غير خاذله؛ آذن بني ذبيان بالحرب انتقاماً لفرسه المظلوم، وانتقاماً لأخيه مالك الذي قتله حذيفة بن بدر بابنه (ندبة) الذي أرسله إلى قيس يطالبه بجائزة السبق فقتله قيس .

(ج) **السرد التناوبي** أو المراوحة (المداولة)

وهو تناوب السرد أو المراوحة بين حدثين أو أكثر –وتلك الأحداث مرتبطة بطبيعة الحال في قصة واحدة– وتسمى هذه الطريقة التداول أو المداولة، ومعناها :

(١) ما توضع فيها الثياب .

أن يقطع الراوي سرد الحدث الأول، ثم ينتقل إلى الحدث الثاني فينقل منه جزءاً، ثم يعود إلى الحدث الأول فيستأنف سرده من حيث تركه .

وهذه الطريقة —في الغالب– تستعمل في سرد أحداث الرواية الطويلة التي قد تنقسم إلى أبواب وفصول ومشاهد، إذ ربما استقل فصل عن سابقه أو عن لاحقه بموضوعه أو فكرته أو أبطاله، وإن كانوا جميعاً في النهاية يوجَهون إلى الالتقاء.

وقد لا يتسع إطار القصة القصيرة أو الأقصوصة لمثل هذا التوازي أو هذا التشعب، ذلك أن الأقصوصة مشروطة بقصرها وتركيزها، وقد حددها –كما ذكر شكري عياد– الشاعر والقصاص الأمريكي (إدجار آلان بو) بمدة الفراغ من مطالعتها ، والتي تتراوح بين نصف الساعة والساعتين[١] .

ومما جاء على طريقة السرد التناوبي أو المراوحة (المداولة) في أيام العرب الجاهلية :حرب البسوس .

فالمشاهد المتوازية تتقدم إلى القارئ على هذا النحو:

- نزول البسوس بنت منقذ ضيفة على ابن أختها جساس بن مُرَّة ،ومعها ناقة خوَّارة[٢] لها فصيل .
- محاورة كليب وائل لامرأته (جليلة بنت مرة) من أمنع منه ذمة، ومن أعز وائل؟.

(١) القصة القصيرة في مصر (دراسة في تأصيل فن أدبي)-شكري محمد عيادصـ١٠ وما بعدها، ط جامعة الدول العربية_ القاهرة ١٩٦٨ .
(٢) خوارة : حسنة رقيقة .

هذان المشهدان في حالة تقابلية، وإن كانا متوازيين في الزمان متلاحقين في السرد .

- ثم يأتي حادث الاعتداء على ناقة البسوس من كليب لما مرت عليه إبل جساس وفيها ناقة البسوس فأنكرها وقال: أوبلغ من أمر ابن السعدية[١] أن يجير عليَّ بغير إذني ؟! فيأمر غلامه فيرميها بسهم في ضرعها فيختلط دمها بلبنها[٢] .
- ويلي هذا المشهد مشهد آخر وهو انتقام جساس بقتل كليب لفعلته السابقة، ولأنه أجلى أهل جساس عن الماء حتى كادوا يموتون عطشاً[٣] .
- ثم بعد ذلك يقابل الراوي بين الحيين (البكري والتغلبي) في استعدادهما للحرب، أو للتفاوض في شأن الدية (إن كان قبول الدية ممكناً) لا سيما أن جليلة قالت لأبيها: (أمنية مخدوع ورب الكعبة ، أبالبدن تدع لك تغلب دم ربها) لما قال لها : أويكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟[٤].
- ثم يُدخل الراوي مشهداً ثالثاً موازياً في الزمن لمشهدي التفاوض؛ وهو مشهد منادمة همَّام بن مرة (أخي جساس) للمهلهل (أخي كليب) .
- ثم يتحول دور البطولة إلى همام والمهلهل، وتدور حولهما الأحداث، وذلك بعد خروج البطلين الأصليين (جساس وكليب) من مسرح الأحداث بقتل الثاني وهروب الأول .

(١) يعني جساساً .
(٢) ينظر أيام العرب في الجاهلية صـ١٤٥ .
(٣) يراجع تفاصيل ذلك (أيام العرب في الجاهلية)صـ ١٤٦ .
(٤) السابق صـ ١٤٦.

وعلى هذه الطريقة تتناوب الأحداث وتتراوح وتتداول، مشهداً بعد مشهد، أو مشهداً إزاء مشهد، أو مشهداً بدل مشهد، إلى آخر تلك الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل والتي اختصر الراوي سنيِّها الأربعين في حوالي ثلاثين صفحة تقريباً .

وكما جاء التناوب والمراوحة في الأيام الطويلة (حرب البسوس)، كذلك جاءت في الأيام القصيرة كـ (يوم النفراوات)[١] وموضوعه :

طغيان زهير بن جذيمة العبسي (سيد هوازن) فيهم، وتجبره عليهم ...(وكان زهير يعزهم[٢]، فإذا كانت أيام عُكاظ أتاها زهير ... فتأتيه هوازن بالإتاوة التي له في أعناقهم ...)[٣]، ثم انتقام عامر بن صعصعة (بطن من هوازن) على يد فتاها خالد بن جعفر العامري من زهير بن جذيمة ؛ لما كان في صدرهم منه من الغيظ والحنق بسبب تجبره، وكذلك بما فعله مع عجوز هوازن لما أتته (بسمن في نِحْي[٤]، واعتذرت إليه، وشكت إليه السنين التي تتابعت على الناس، فذاقه فلم يرض طعمه، فدعَّها[٥] بقوس في يده عُطُل[٦] في صدرها، فاستلقت لحلاوة القفا[٧]، فغضبت هوازن وصمدت له[٨] ...)[٩] .

(١) نفراوات : جمع نفرى وهي حرَّة (موضع في بلاد غطفان) .
(٢) يعزهم : يغلبهم .
(٣) أيام العرب في الجاهلية صـ ٢٣٥ .
(٤) النحي : الزق الذي يجعل فيه السمن .
(٥) دعَّها : دفعها .
(٦) قوس عُطُل : لا وتر فيها .
(٧) حلاوة القفا : وسطه .
(٨) صمدت له : قصدته وانتظرت غفلته .
(٩) أيام العرب في الجاهلية صـ ٢٣٥ وما بعدها .

فالمشاهد تتراوح وتتناوب بين تأهب العامريين للثأر؛ واحتقار زهير لخالد العامري وسبِّه له، ووثوقه بنفسه، ثم انتقاله وبنيه وبني أخويه يطلب الغيث ...، ثم مرور الحارث (أخي تماضر بنت الشريد امرأة زهير بن جذيمة) بها، وكيف أخذ عليه أبناؤها ألا يدل عليهم، وكيف عاد إلى قومه فدل عليهم تلميحاً وتورية ، ثم لحاق العامريين بزهير وبنيه وقتله بينهم ... إلخ .

(٢) القصد إلى الإيجاز (التركيز والتكثيف)

تخضع أيام العرب في الجاهلية –بوصفها قصصاً قصيرة أو أقصوصات "قصيرة جداً"– لقانون الإيجاز (الاقتصاد في التعبير)، والمعني به إيجاز الحدث والقبض على وحدته .

وهذا القانون –إن صح التعبير وصحت التسمية– يرفض الشرح، وينأى عن السببية، ويبتعد عن الإطالة ، فلا مجال –غالباً– للترادف، ولا مكان للهذر والوصف، فتستغني الأيام (أيام العرب) بالضرورة عن كل الزوائد التي قد تثقل السرد، وتشتت الاهتمام، وتُفقد التركيز، فلا وصف فيها للأشخاص أو الأماكن والأشياء إلا مختصراً خاطفاً، أو بطريقة التلميح والإيحاء ،وهو ما يسميه النقاد (التكثيف)[١]، وهذا يتوافق مع إحدى طرق الكتابة، وإحدى المقولات العربية القديمة (البلاغة الإيجاز)، فلا مقدمات فائضة عن الحاجة، ولا تعليقات ختامية، ولا استطرادات في غضون السرد، وكأن القصة تبني الحدث كلمة كلمة، وجملة جملة بناءً محكماً لا فضل فيه ولا زيادة، معتمدة على كلمات قليلة ذات إيقاع وإيحاء، إلا ما كان يخدم القصة مباشرة بتوضيح شخصية الإبطال مثلا –وهنا يكون

(١) التكثيف: مصطلح منقول من ميدان "علم النفس" إلى ميدان الأدب، وظيفته إذابة مختلف العناصر والمكونات المتناقضة والمتباينة، وجعلها في واحد، أو بؤرة واحدة تلمع كالبرق الخاطف، وهو يحدد بنية القصة القصيرة جداً ومتانتها، لا بمعنى الاقتصاد اللغوي فحسب؛ وإنما في فاعليته المؤثرة في اختزال الموضوع، وطريقة تناوله ...(ينظر تفسير الأحلام) – سيجموند فرويد- ترجمة مصطفى صفوان صـ ٢٩٢ .
وهو في أحد تعريفاته: (الاختزال المبني على رؤية شاملة للفضاء الخارجي ...) ينظر (تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة)– خيري دومة صـ ٢٥٢ ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨ .

للحوار أهمية كبيرة- أو تفسير حدث من الأحداث، أو ربط العلاقات بين الحوادث فيما بينها، والأشخاص فيما بينهم، أو بخدمة الجو العام للقصة، فلا يكون الوصف -حينها- ولا إدخال عنصر ما، ولا إيراد حدث بسيط أمراً زائداً، أو تعبيراً مجانياً بلا داع، بل يجب أن يؤثر بصورة قريبة أو حتى بعيدة في تطور الأحداث، كما ينبغي من جهة الصياغة (أن تناسب كل كلمة السياق والموضوع...)[1] .

فالفضول والزيادة والاستطراد والمجانية ،كل هذه الأشياء عدو للحبكة القصصية، ويعني هذا أن القارئ المتدبر عليه أن يلتمس لكل كلمة، ولكل تركيب، ولكل عمل يحدث من الراوي مبرراً في خدمة القصة؛ للزيادة في حبكتها وإثراء شخصياتها، إذ الحكي المضغوط أو المضموم أو المكثف أو المركز حتى درجة التقطير -إن صحت التسمية هنا- ليس هدفاً في حد ذاته، بل يجعل من القصة بناءً متيناً، يمسك فيه الملاط المداميك، ويضيف إليها عنصراً جمالياً يضفي عليها الرونق والألق ألا وهو القوة الإقناعية للتعبير المركز الذي يتماشى -كما سبق- مع المقولة العربية الشهيرة (البلاغة الإيجاز) أو (البلاغة في الإيجاز) .

ومما جاء على هذه الطريقة من "أيام العرب الجاهلية" ما نراه في يوم (النفراوات) - السابق ذكره- من سوء معاملة زهير بن جذيمة للعجوز العامرية التي وافته بإتاوتها من سمن فلم يرضه (فدعها بقوس في يده عطل في صدرها فاستلقت لحلاوة القفا)، فوصف سقوط المرأة بعبارة (لحلاوة القفا) يبدو في ظاهره للوهلة الأولى فضولاً (يمكن حذفه) إذ كان يمكن للراوي أن يكتفي بقوله (فاستلقت)، أو يقول

(١) فن القصة القصيرة في أدبنا الحديث -عبد الحميد يونس صـ ٧٢ ط دار المعارف-١٩٧٣ .

(فسقطت) أو ربما استخدم عبارة أخرى، لكن العبارة والوصف الذي اختاره الراوي يشعر من طرف خفي بانكشاف العورة من العجوز[١]، وانكشاف العورة له من الحياء وفقد الشرف وامتهان الكرامة معان كثيرة، فكأن زهيراً لم يعتد على المرأة بضربها بالقوس ؛ بل كشف عورتها، وهذا من شأنه أن يزيد بني عامر نقمة عليه، وكذلك نعت القوس بـ (العطل) أي الخالية من الوتر يشي بأنها أصبحت عصا ، وفقدت صفة السلاح، فصارت الإهانة مضاعفة، وكذلك –في باب الصياغة– اختيار الفعل (دعَّها) على ضربها أو دفعها ...إلخ ، إذ يشعر اللفظ بالعنف والقوة مع الجفوة والإهانة، لذلك قال الله –تعالى– في معرض إهانة الكافرين، والتنكيل بهم: (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)[٢]، وفي معرض الفظاظة مع اليتيم وعدم العطف عليه والتلطف معه وزجره يقول –سبحانه– :(فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)[٣].

فقد لعب التكثيف دوراً كبيراً في أحداث القصة، وارتكز على عدة ركائز منها: شحن الجملة القصصية بالصورة الفنية التي تؤدي دور الوصف، وتشي بالمعنى، وتنم عنه، بالإضافة إلى الجمل المركزة ذات الطابع الموحي المختصر في أسلوب سردها، والقدرة على الإيحاء والتعبير والإشعاع بأكثر من دلالة .

هذا بالإضافة إلى الاقتصار على أقل عدد ممكن من الشخصيات، مع العناية باستهلال القصة لجذب القارئ (كان زهير بن جذيمة العبسي سيداً لهوازن،

(١) في رواية العقد الفريد ليوم النفراوات (وهو لبني عامر على عبس): (فاستلقت على قفاها منكشفة ...) ينظر العقد الفريد لا بن عبد ربه الأندلسي ٩٦٤/١ ط دار الفكر .
(٢) سورة الطور آية ١٣ .
(٣) سورة الماعون آية ٢ .

فكانت لا تراه إلا ربًّا، وهوازن يومئذ لا خير فيها، وإنما هم رعاء الشاء في الجبال...)[1] .

والأمثلة على حسن اختيار الكلمات المعبرة الموحية، والتراكيب الواصفة كثيرة لا يكاد يخلو منها سطر من روايات (الأيام)، وعند أغلب كتاب الأدب أمثال أبي عبيدة، والجاحظ، والمبرد، والقالي، وابن قتيبة وغيرهم، وأعني بهم كتاب النوادر واللطائف ، والأخبار القصيرة والمِلَح، فقد كانوا ذوي براعة في اختيار الكلمة المصورة الناطقة المجسمة للهيئة والحركة، بل حتى الدالة على الطبع والنفسية، كأنهم اتخذوا من القرآن مثلاً يحتذونه في وجود الفجوات بين المشاهد والأحداث، وهذا دليل على اختفاء التفصيلات، وترك مساحة للعقل البشري (عقل القارئ) لأن يتصور الجزئيات، ومحاولة أن يعايش الأحداث .

ومثال آخر لذلك، ومن الإشارات التي تخدم الجو العام للقصة؛ تدخُّل الصُّرَد (جنس من البوم يتشاءمون منه) الذي يصرصر ثلاثاً فوق رأس الطريدين الوجلين اللذين ذهبت نفسهما شعاعاً يوم (منعج): رياح بن الأسك الغنوي، ورجل من بني كلاب (وخرج رياح رديفاً لرجل من بني كلاب، وكان معهما صُحَيفة فيها لحم؛ فأدخلا يديهما في الصحيفة، فأخذ كل واحد منهما وَضْرَة[2] ليأكلها، مترادفين لا يقدران على النزول، فمر فوق رؤوسهما صرد فصرصر، فألقيا اللحم، وأمسكا بأيديهما، وقالا: ما هذا ؟!...)[3].

(١) أيام العرب في الجاهلية – يوم النفراوات صـ ٢٣٥ .
(٢) الوضْرة: القطعة الصغيرة من اللحم .
(٣)أيام العرب في الجاهليةً ـ ٢٣٢ .

فرياح يطلب النجاة من زهير وقومه، ويلوذ بالفرار على دابة الكلابي يطويان الأرض، ولا يترجلان حتى للطعام .

في هذا الجو المشحون بالخوف والحذر والظلام ،يأتي نذير الشؤم (الصرد)، فيمر مصرصراً فوق ركبهما ثلاثاً، فيزيدهما خوفاً على خوف، فلا يستسيغان اللقمة، ويحتمي كل منهما بالآخر تمسكاً بالأيدي، فيوحي الراوي للقارئ بهذا المشهد –بما لا يترك مجالاً للشك– أن ما يحذرانه واقع، وأن عدوهما مدركهما لاحقهما لا محالة.

ويلاحظ هنا أن الراوي لم يستعمل قط عبارة "خوف أو هلع" أو حتى ما يشاكلها، وإنما أشعر بالخوف والهلع والشؤم بأنهما مدركان ؛باختياره للصرد تحديداً ثم بذكره ثلاثاً، ليصور مدى فزعهما وطيران قلبهما فزعاً ورعبا .

الفصل الثاني

عناصر القصة في (أيام العرب الجاهلية)

(١) الحبكة (العقدة)

الحبكة أو العقدة، وتعني الطريقة التي يتم بها سرد الأحداث، انطلاقاً من علاقة السببية التي تربط المقدمة بما بعدها، والنتيجة بالسبب، والأحداث اللاحقة بالسابقة، وكل ذلك بالنهاية[١] .

أو هي (تتابع زمني يربط بينه معنى السببية)[٢]، ومعناها يدور حول مجموعة من الأحداث المترابطة زمنياً، والمتجهة بانسجام نحو الذروة فالحل، أو هي المجرى العام الذي تجري فيه القصة، وتتسلسل بأحداثها على هيئة متنامية متسارعة، ويتم هذا بتضافر عناصر القصة جميعها .

والقصة في (أيام العرب الجاهلية) تشتمل على العقدة، وعلى المشوقات (عناصر التشويق) مروراً بذروة التعقيد وصولاً إلى الحل (لحظة التنوير أو الانفراج)، فقد تكون الحبكة عدة عقد متوالية :

ففي حرب البسوس –مثلاً– تأتي العقدة الأولى –ولعلها عقدة نفسية– وتكمن في استفزاز كليب وائل لامرأته (جليلة بنت مرة)، إذ يسألها على سبيل الزهو: هل

(١) الحبكة والعقدة المعنى والنوع والخصائص –يوسف حطيني صـ ١٧ د ت .
(٢) دراسات في الرواية والقصة القصيرة – يوسف الشاروني ص ٧٨ ط مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٦٧ .

تعلمين على الأرض أمنع مني ذمة؟ فتسكت ولا تجيب، ثم يعيد عليها الثانية، فتسكت، ثم يعيد الثالثة ، فتجيب قائلة: نعم أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو المزدلف[١] .

وتمضي مدة ثم يعود كليب فيسألها: من أعز وائل؟ فقالت: أخواي جسَّاس وهمَّام، فيخرج كليب مغضباً، فيري فصيل ناقة البسوس فيرميه بقوسه فيقتله، ولا تحرك (تغلب)رداً على ما فعله كليب ساكناً .

ثم إن كليباً أعاد القول على امرأته بعد مدة وبعد فعلته السابقة فقال: من أعز وائل ؟ فقالت: أخواي، فيضمرها في نفسه ويسرها ويسكت، وتبقى الأزمة داخلية نفسية إلى أن تنفجر يوماً، فيرمي ناقة البسوس خالة جساس وضيفة التغلبيين، فيدمي ضرعها ويفسد لبنها، فتنشأ عقدة ثانية مؤداها: ما موقف التغلبيين مما فعله كليب هذه المرة؟ أيرضخون لما فعل؟ أم يردون على هذا الاعتداء؟ ثم يقتل جساس كليباً فتنشأ العقدة الثالثة وهي: التأهب للحرب، ولمن تكون الغلبة ولمن يكون الظفر فيها ،للمعتدي أم للمعتدى عليه ؟ .

- **المشوقات**

معلوم أن التشويق من وظائف الحبكة (العقدة)، وهو إثارة الترقب والتلهف والدهشة والتطلع في نفس القارئ، في حين أن الحكي (الحكاية) لا يعدو أن يكون مجرد إثارة لحب الاستطلاع لديه، وبين حب الاستطلاع وإثارة الدهشة والغرابة فرق كبير من حيث التأثير الفني .

(١) أيام العرب في الجاهلية صـ ١٤٥ .

وفي التشويق يأتي المثل في يوم (الكديد)[١]، إذ يعود ربيعة بن مُكدِم[٢] من سفره إلى مواطن كنانة ومعه ظعينة[٣] في خفارته (حراسته وذمته وعهدته وأمانه) وحده لا رفقة معه، فيعترضه دريد بن الصِّمة[٤] في ثلاثة فرسان من بني جشم –وكان قد خرج والفرسان للغارة على بني كنانة– ويرسل دريد الفرسان الواحد تلو الآخر يأمرون ربيعة أن يخلِّي عن الظعينة (المرأة) وينجو بنفسه، فيمتنع ربيعة عن ذلك غير آبه بصياحهم عليه، ولا بتهديدهم له .

فالعقدة هي: كيف يتخلص ربيعة من قاطعي طريقه؛ وهم جماعة وهو فرد ؟ فربما غلبت كثرتهم شجاعته، وأسلحتهم سلاحه لا سيما مع وجود الظعينة .

ويأتي التشويق بأن يرسل دريد أصحابه الواحد تلو الآخر، فيصرعهم ربيعة واحداً واحداً وهو رابط الجأش، في قوة وشجاعة نادرة، إلى أن يرتاب دريد في إبطاء أصحابه عليه ظاناً أن أصحابه طمعوا في الظعينة دونه فهربوا بها، فيلحق بربيعة فيجد أصحابه قد قُتلوا، ويجد ربيعة (قاتلهم) لا رمح معه، فيعطيه رمحه ويقول له:(أيها الفارس إن مثلك لا يُقتل ...)[٥] ثم يعود ليثبط أصحابه وقومه عنه كما وعده .

(١) ينظر أيام العرب صـ ٣١٢، ويوم الكديد يوم لبني سليم (بطن من قيس عيلان) على كنانة، والكديد: موضع على بعد اثنين وأربعين ميلاً من مكة ، ينظر العقد الفريد ٣٢٤/٣ ، والأغاني ١٢٩/١٤ ، والأمالي ٢٧١/٢ .

(٢) أحد فرسان ربيعة المعدودين وشجعانهم المشهورين .

(٣) الظعينة : المرأة ما دامت في الهودج .

(٤) دريد بن الصمة: سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، كان مظفراً ميمون النقيبة (محمود الرأي والمختبر)، غزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها ، وأدرك الإسلام ولم يسلم .

(٥) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣١٣ .

ومن التشويق –أيضا– ما حدث لرياح بن الأسك الغنوي إذ أفلت من مطاردَيه لما قتل شأساً بن زهير، فجرحاه وقتلهما، ثم أوى إلى خيمة عجوز ليشرب، فتمني العجوز نفسها بأسره، وتسليمه إلى زهير مقابل فدية، فكأن القارئ أو السامع يقول: أبعد أن أعجز رياح زهيراً وقتل أولاده؛ يقع في قبضة عجوز أسيراً ؟!–حتى وإن كان جريحاً– لكن الجواب ما لبث أن جاء في قول الراوي عن رياح (أخذ حديدة فجذم بها رواهشها[1])ثم شرب ونجا.

–ومن التشويق لجوء الراوي إلى الرسائل المعماة ذات الألغاز، لا سيما —إذا كان المخبِر المنذر مأخوذاً عليه (أي أعطى عهداً بأن لا يدل القوم على من أعطاهم العهد، وأن يلتزم الحياد) أو كان في حالة أسر تمنعه من الكلام الصريح، فهناك – حينئذ– حيَلٌ نستطيع أن نسميها حيلاً إعلامية، أو حيلاً عسكرية، ومن العجيب أن يتقبل المرسل إليه (المستقبِل) هذه الرسائل المعماة، وتلك الحيل فيحل ألغازها كما يفعل أهل المخابرات العسكرية في زماننا هذا، فيطبقون على الرسالة العيار السري (الشفرة) الذي تصبح به رموزها واضحة مفهومة .

من ذلك قول الراوي في يوم النفراوات (ثم انتقل زهير من قومه ببنيه وبني أخويه زنباع وأسيد يُريغ[2] الغيث في عشراوات[3]له، وبنو عامر قريب منهم ولا يشعرون بهم، وكانت تماضر بنت الشريد امرأة زهير بن جذيمة، فمر بها أخوها الحارث[4] ؛

(١) جذم : قطع ، رواهشها : عروق ظاهر كفها .
(٢) يريغ : يطلب .
(٣) عشراوات جمع عشراء :وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر .
(٤) كان الحارث قد أصاب دماً، ثم احتمى ببني عامر قوم خالد، وكان فيهم، ثم إن خالداً أرسله عيناً ليأتيه بخبر زهير .

فقال زهير لبنيه: إن هذا الحمار لطليعة[١]عليكم فأوثقوه، فقالت أخته لبنيها: أيزوركم خالكم فتوثقوه وتحرموه؟ ثم حلبوا له وطْباً[٢]، وأخذوا منه يميناً ألا يخبر عنهم، ولا ينذر بهم أحداً، فخرج يطير حتى أتى بني عامر عند ناديهم، وأتى شجرة فألقى الوطب تحتها والقوم ينظرون، ثم قال: أيتها الشجرة الذليلة؛ اشربي من هذا اللبن وانظري ما طعمه؟ فقال أهل المجلس: هذا رجل مأخوذ عليه، وهو يخبركم خبراً ! فأتوه، وذاقوا اللبن، فإذا هو حلوٌ لم يقْرُص[٣] بعد، فقالوا: إنه ليخبرنا أن طلبنا قريب)[٤].

هذه المشوقات بقدر ما هي حيل قصصية يزين بها الراوي سرده للأحداث ويقوي انتباه سامعيه ويضاعف تشوقهم؛ بقدر ما هي حالات طارئة يكون فيها المبلِغ (المنذر) بين واجبين: واجب الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه إن هو أقسم ألا يخبر، وأن يلتزم السكوت والحياد، وواجب الوفاء لقومه أو أحلافه أن يدل على عدوهم، فالصراع هنا صراع نفسي مؤداه: أيبر المخبر بالوعد والقسم أم يخون العهد، لكن الراوي في تلك الحالة -أيضا- يحافظ على الأخلاق والمروءات، فيجعل المبلغ يأتي بحيلة أو "طوطمية" بدوية جاهلية، فيبلغ دون أن يبلغ، باستخدام الرموز التي لا يفهمها إلا الراسخون في الفراسة أو القيافة أو ما أشبه هذه المواهب، فإن فهمها القوم فقد بلغ دون أن يتكلم، وإن لم يفهموها فقد قام -على كل حال- بالواجب تجاه قومه .

(١) طليعة : جاسوس .
(٢) الوطب: سقاء اللبن .
(٣) يقرص: يحمض .
(٤) أيام العرب في الجاهلية صـ ٢٣٦.

فالراوي بذلك يدخل هذه الألغاز والتعميات، ليوجد عقبات جديدة في طريق أبطاله، فيتأخر الحل بذلك، ويقوى الاهتمام بالأحداث المتوقعة .

-ومن ذلك ما فعله كرِب بن صفوان من إنذاره لعبس وعامر في يوم (شِعْب جَبَلة) بعد أن أخذت عليه تميم وأسد وذبيان وأحلافهم عهداً ألا ينذر بني عامر: (وأقبلت تميم وأسد وذبيان ولِفُّهم نحو جبلة، فلقوا في طريقهم كرب بن صفوان السعدي –وكان شريفاً– فقالوا له: ما منعك أن تسير معنا في غزاتنا؟ قال: أنا مشغول في طلب إبل لي، فقالوا لا، بل تريد أن تنذر بني عامر، ولا نتركك حتى تعطينا عهداً وموثقاً ألا تفعل؛ فحلف لهم .

ثم خرج عنهم وهو مغضب، ومضى مسرعاً على فرس له عُرْي[1]، حتى إذا نظر إلى مجلس بني عامر نزل تحت شجرة حيث يرونه، فأرسلوا إليه يدعونه، فقال: لست فاعلاً؛ ولكن إذا رحلتُ فأتوا منزلي فإن الخبر فيه .

فلما جاءوا منزله؛ إذا تراب في صُرَّة، وشوك قد كسرت رؤوسه، وفرقت جهته، وإذا حنظلة موضوعة، وإذا وطب معلق فيه لبن؛ فقال الأحوص: هذا رجل قد أخذت عليه المواثيق ألا يتكلم، وهو يخبركم أن القوم مثل التراب كثرة، وأن شوكتهم كليلة،

(١) فرس عري: لا سرج عليه .

وجاءتكم بنو حنظلة، انظروا ماذا في الوطب، فاصطبوه[١] فإذا هو لبن قارص[٢]، فقال: القوم منكم على قدر حلاب اللبن إلى أن يحرز)[٣] .

فهذه الطرق من المشوقات، وفي طريقة الإبلاغ أكثر طرافة –على سذاجتها– من الوسيلة الصريحة المكتوبة، أو الإنذار المباشر بواسطة صديق أو حليف، إذ الأخيرة لا تعمية فيها ولا تشويق ولا إدهاش .

والأمثلة على ذلك كثيرة في الأيام منها –أيضا– ما فعله ناشب بن بشامة العنبري[٤] الأعور، حين تجمعت اللهازم[٥] لتُغِير على تميم (يوم الوقيط)[٦]، وكان ناشب أسيراً في قيس بن ثعلبة (فقال لهم ناشب :أعطوني رجلاً أرسله إلى أهلي بني العنبر وأوصه ببعض حاجتي، فقالت له قيس بن ثعلبة: ترسله ونحن حضور – وذلك مخافة أن ينذر عليهم– قال: نعم ...)[٧] فأتوه بغلام مولد فقال له: (... وقل لهم: فليُعروا جملي الأحمر، ويركبوا ناقتي العيساء[٨] بآية ما أكلت معهم

(١) اصطبوه : أراقوه .
(٢) قارص: حامض .
(٣) أيام العرب الجاهلية صـ ٣٥٤، وفي رواية ابن الأثير اختلاف في تفسير الألغاز، وما تركه كرب بن صفوان (ينظر الكامل في التاريخ١/٣٥٦) .
(٤) من بني العنبر وهم بطن من تميم .
(٥) اللهازم : هم عنترة بن أسد بن ربيعة، وعجل بن لجيم، وتيم الله وقيس ابنا ثعلبة من بكر بن وائل وقد كانوا جميعاً حلفاء .
(٦) يوم الوقيط: لبكر (من ربيعة) على تميم، والوقيط: المكان الصلب الذي يستنقع فيه الماء، ثم أطلق على موضع .
(٧) أيام العرب صـ ١٧٠ .
(٨) الناقة العيساء : البيضاء يخالط بياضها شقرة .

حيساً[١]، وليرعوا حاجتي في أبيني مالك[٢]، وأخبرهم أن العوسج[٣] قد أورق، وأن النساء قد شكَّت[٤] ...)[٥].

ويلتقط المستقبِل الرسالة، ويحل شفرتها كما جاء في الأيام (أما جمله الأحمر فالصَمَّان[٦] يأمركم أن ترتحلوا عنه، وأما ناقته العيساء؛ فإنها الدهناء[٧] يأمركم أن تتحرزوا فيها، وأما أبينو مالك فإنه يأمركم أن تنذروهم ما حذركم، وأن تمسكوا بحلف بينكم وبينهم، وأما إيراق العوسج؛ فإن القوم قد اكتسوا سلاحاً، وأما اشتكاء النساء فيخبركم أنهن ...)[٨].

هذا النوع من التشويق عن طريق التورية كثير جداً في القصص القديم وحتى الحديث، والقصد منه –مع التشويق– إظهار الذكاء والدهاء والفطنة، مما لا يتسنى لعُرض الناس، وهذه التمويهات والتوريات ليست من الغموض المبالغ فيه بحيث لا تخفى على الطرف المقابل (العدو)، فأدنى اجتهاد منهم يتطلب أن يتساءلوا عن فائدة هذه الرسالة، وعن حاجة المبلغ "الأسير" أن يبلغها في ذلك الحين بالذات(حين رآهم يتأهبون لغزو قومه) فكأنهم على قسط كبير من السذاجة

(١) الحيس : تمر يخلط بسمن أو أقط .
(٢) يرعوا : يحفظوا، وأبيني : تصغير بنين .
(٣) العوسج: شوك .
(٤) شكت النساء: اتخذت الشكاء (جمع شكوة: وعاء من أدم يبرد فيه الماء)
(٥) أيام العرب صـ ١٧١ .
(٦) الصمان : جبل أحمر في أرض تميم .
(٧) الدهناء : سبعة أجبل من الرمل وهي ديار لعامة بني تميم .
(٨) أيام العرب صـ ١٧٢ .

والسطحية بل والتسامح ، إذ يلبون رغبات أسراهم حتى لو كانت إرسال رسول خاص بالوصية .

والغرض -كما سبق- هو لجوء الراوي إلى هذه الألغاز والتوريات والتمويهات للزيادة في التشويق والحبكة .

(٢) الزمان في (أيام العرب الجاهلية)

الزمان ركن أساسي في البناء القصصي، إذ هو الحيز الطبيعي الذي يقع فيه الحدث، وتتحرك في مجاله الشخصيات، ولا يختلف اثنان في مدى أهميته كعنصر حيوي في التركيب الأدبي والفني للقصة أيا ما كان نوعها .

وقد أهمل الراوي –غالباً– في أيام العرب الجاهلية التحديد والتدقيق الزماني، واكتفى بالتعبير المبهم العام كقوله: (فمضى لذلك ما شاء) وقوله: (... غبر على ذلك دهراً...) وقوله: (واقتتلوا قتالاً شديداً كامل يومهم ...) وقوله: (وبقوا ما شاء الله ...) وقوله: (وحجز بينهم الليل ...) وقوله: (حتى حال الليل بينه وبينهم ...) إلى آخر ذلك من التعابير التي أبهم فيها الراوي تحديد الزمن، وذلك ليعكس تصرفه في الزمن القصصي تصرفاً محكماً، وقد سبق أن السرد في أيام العرب يكون بطريقة التسلسل أو التناوب أو التراجع الخاطف ليوصل في النهاية إلى المشهد الختامي؛ لكن الراوي يتصرف في الزمان مع هذه الطرق الثلاث، فتارة يسرد أحداثاً متوازية تفضي جميعها إلى نتيجة واحدة (تناوب ومراوحة)، كما فعل في يوم (مُبَايض)[1] :

١. المشهد الأول : حصيصة بن شراحيل الشيباني يطوف بالبيت، ويسأل عن طريف بن تميم العنبري قاتل أبيه (فأروه إياه، فجعل كلما مر به تأمله

(١) يوم مبايض: من أيام ربيعة وتميم، وهو لشيبان (من بكر) على تميم، ومبايض: ماء من مياه بني تميم (ينظر أيام العرب الجاهلية صـ ٢٠٨) .

ونظر إليه، ففطن طريف، وقال: لمَ تشد نظرك إليّ؟ قال حصيصة: أريد أن أثبتك[١]، لعلي ألقاك في جيش فأقتلك ...)[٢].

٢. المشهد الثاني: رحيل هانئ بن مسعود الشيباني بقومه، ونزول شيبان وفيهم حصيصة بماء يقال له (مبايض) فأقاموا عليه أشهراً .

٣. المشهد الثالث: يهرب عبد من شيبان إلى تميم، ويخبرهم بنزول شيبان على مبايض، فتتحرك تميم لقتالهم ومعهم طريف العنبري إلى مبايض .

ثم تتضافر المشاهد (الأحداث) الثلاثة للوصول للحادث الختامي وهو انهزام طريف واتبعه حصيصة فقتله .

فالراوي في بداية الحدث قال: (فمضى لذلك ما شاء ...) ثم ذكر أحداثاً متوالية في أزمنة مختلفة، وصولاً إلى الحدث الأبرز وهو ثأر حصيصة من طريف بقتله .

وتارة أخرى –وعلى العكس– نجد جملة من الأحداث لا تفضي إلى نتيجة متوقعة كالتي مرت في المشاهد السابقة (مقتل طريف العنبري)، بل تتولد جميعها عن حادثة وقعت وانتهت مثل ما تبع حرب يوم (شِعب جبلة) [٣]، فالحادثة الأصل: نهاية الوقعة تتفرع إلى:

(١) أثبتك : أعرفك حق المعرفة .
(٢) أيام العرب صـ ٢٠٨ .
(٣) أيام العرب صـ ٣٤٩، وشعب جبلة : يوم لعامر (من قيس) وحلفائهم من عبس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما، وجبلة: جبل طويل له شعب عظيم واسع لا يُرقى الجبل إلا من قبله، ويوم جبلة من أعظم أيام العرب وأشدها ، وكان قبيل الإسلام بسبع وخمسين سنة .

أ- لقيط بن زرارة يلقي بنفسه في العراك لشدة لوم قومه له لما نزلوا على رأيه وانهزموا؛ فيطعنه شريح العامري فيموت بعد يوم .

ب- حاجب بن زرارة يولي منهزماً؛ فيأسره الذهدمان (زهدم وقيس ابنا حزن)، فيرفض أن يستأسر لهما ' فيتلقفه منهما مالك ذو الرقيبة فيستأسر له حاجب .

ج-عمرو بن عمرو بن عدس التميمي يأسره قيس بن المنتفق (من بني عامر)، فيجز ناصيته ويتركه على عهد أن يوفي له عمرو بعد ذلك ثم يلحق عمرو بقومه .

د- حسان بن عامر بن الجون يأسره طفيل بن مالك بعد أن اعترض بينهما رجل من كندة وأراد أسره (حسان) شريح بن الأحوص .

هـ معاوية بن الجون يأسره عوف بن الأحوص، ويجز ناصيته وعتقه على الثواب.

فهؤلاء خمسة من قواد "الجبهة" التميمية ضد عبس وعامر في هذه الوقعة العظيمة، وقد تتبع الراوي نهاية ومآل كل واحد منهم بعد الهزيمة، في سرد متوال، رغم توازي الأحداث ووقوعها في وقت واحد، إذ لا يمكن في السرد الكتابي أو الحكي المنطوق أن يترجم الراوي في وقت واحد عن أحداث تقع في وقت واحد .

والأمثلة على الزمان وتنوعه كثيرة جداً في الأيام .

(٣) الشخصيات

الشخصية القصصية هي أحد الأفراد الواقعيين أو الخياليين الذين تدور حولهم أحداث القصة، ولا تنفصل عن الحدث لأنها هي من يقوم به إذ (من الخطأ الفصل أو التفرقة بين الشخصية وبين الحدث، لأن الحدث هو الشخصية وهي تعمل، أو الفاعل وهو يفعل)[١]، وإذا كانت الحادثة هي لب القصة، فإن الشخصية هي لب الحادثة، إذ لا يمكن تحقيق الحدث (الحادثة) وإنجازه دون شخصية، أو شخصيات تأخذ على عاتقها مهمة الإنجاز أي خلق الحادثة .

ويقسم النقاد والقصاصون الشخصية إلى أنواع، سواء بحسب دورها المتبنى في القصة، أو بحسب تمظهرها الخارجي أو الداخلي إلى :

شخصية مركزية، وأخرى ثانوية، وثالثة نامية، وبعض الشخصيات نمطية، وبعضها متوازن نفسياً، والبعض معقد نفسياً ...إلخ .

وفي قصص (الأيام) تتفاوت قيمة الأشخاص القصصية بحسب ظهورهم على مسرح الأحداث، ومشاركتهم في الحركة والحوار، وكذلك تتميز قيمتهم بطريقة التعريف بهم وبأوصافهم التي يتوخاها الراوي، فنجد أشخاصاً رئيسيين، وأشخاصاً ثانويين، وأشخاصاً ظرفيين (حشويين) وإن كانوا بصورة أو بأخرى لخدمة القصة .

فمثلاً في يوم "منعج" الذي تم الاستشهاد به كثيراً؛ تأتي شخصية "رياح" القاتل، وشخصية "زهير" طالب الثأر، وهما شخصيتان رئيسيتان ركز الراوي الاهتمام عليهما، وسلما من الموت حتى آخر القصة .

(١) فن القصة القصيرة –رشاد رشدي صـ١٠٥، ط القاهرة ١٩٥٧ .

ثم جاء الحصينان (الحصين بن زهير، والحصين بن أسيد بن زهير) مطاردا رياح، وهما شخصيتان ثانويتان؛ إذ لم ينطقا في القصة كلها غير جملة واحدة، إذ قالا لمن معهما: (قفوا علينا حتى نعلم علمه، فقد أمكننا الله من ثأرنا ...)[1]، ثم لا يظفران بطلبتهما، بل يُقتلان، وكذلك شخصية المرأة العجوز التي منعت الماء من رياح "ثانوية" أيضا، فهي لم تشارك في الحوار إلا بعبارة (استأسر!)، وتقتل هي أيضا .

بقيت شخصية امرأة رياح الغنوي، فإنها تظهر مرتين :

الأولى- حين يصورها الراوي وهي تنظر إلى شأس يغتسل (وهو مثل الثور الأبيض) فيجيئ زوجها فيطلب منها أن تعطيه قوسه فيقتل شأساً .
الثانية- حين يراها قوم شأس وأهله تبيع في عكاظ قطيفة حمراء، وبعض ما كان من حباء الملك لشأس، والسلب الذي كان قد أخذه زوجها بعد أن قتله .

تلك المرأة على الرغم من ظهورها المضاعف؛ إلا أنها لا ترتقي إلى مرتبة الشخصية الرئيسية ، وهي -كذلك- ليست شخصية عديمة الفائدة، إذ يشعرنا الراوي - ونلمح هذا من تشبيهه لشأس بالثور الأبيض- بأنها بنظرها إلى شأس وهو عريان يغتسل قد تسببت في قتله ،فبنظرها إلى شأس قد تكون أثارت الغيرة ودفعتها في قلب رياح (زوجها) فقتله .

(١) أيام العرب صـ ٢٣٤ .

أما ظهورها الثاني؛ فكانت فيه (الواسطة) التي بها يتعرف الخصم الموتور على مكان خصمه وموضعه، لذلك كانت شخصية ظرفية .

وكذلك كانت شخصية (الرجل) من بني كلاب، الذي أردف رياحاً خلفه، ومر الصرد فوق رأسيهما، ثم يدل على رياح بعد ذلك حينما سألوه عن مركب الرجل خلفه فقال :(لا مكذوبة! ذلك رياح في الأُول من السمرات ...)[١] فإن شخصيته تشبه شخصية امرأة رياح في ظرفيتها، إذ ظهر في موقف واحد ولم يتكرر ظهوره .

ثم إن الشخصيات منها :الجاهز أي (الشخصيات ذات المستوى الواحد، وهي الشخصيات البسيطة التي تمثل صفة أو عاطفة واحدة تظل سائدة فيها من أول القصة إلى آخرها، ويعوزها عنصر المفاجأة، ومنها : النامي وهي الشخصيات التي تتطور وتنمو شيئاً فشيئاً بصراعها مع الأحداث أو المجتمع، فتنكشف للقارئ كلما تقدمت به القصة)[٢]، فمن الشخصيات الجاهزة في (الأيام)؛ شخصية الأحوص بن جعفر العامري في يوم "شعب جبلة" إذ جاء في وصفه (...اجتمَعوا إلى الأحوص وهو يومئذ شيخ كبير قد وقع حاجباه على عينيه، وقد ترك الغزو، غير أنه يدبر أمر الناس، وكان مجرباً حازماً ميمون النقيبة)[٣]

(١) السابق صـ ٢٣٣ .
(٢) النقد الأدبي الحديث – محمد غنيمي هلال صـ ٥٦٥،ط بيروت ١٩٧٣ .
(٣) أيام العرب صـ ٣٥٢، وميمون النقيبة : محمود المختبر .

وقد جاء هذا الوصف –أيضا– للأحوص على لسان امرأة خرجت تجني الكمأة يوم "رُحْرَحَان"[١]، إذ قالت عنه لما سألها حاجب بن زرارة عن القوم ووصفهم (قالت : رأيت رجلاً قد سقط حاجباه فهو يرفعهما بخرقة، صغير العينين، وعن أمره يصدرون، قال: ذاك الأحوص، وهو سيد القوم ...)[٢] .

ومن الشخصيات النامية في (الأيام) شخيصة دريد بن الصمة في يوم (اللِّوى)[٣]، إذ خرج مع أخيه عبد الله لغزو غطفان، ولو اكتفى الراوي بهذا لفقدنا عنصر المفاجأة والتشويق في الشخصية، لكن الراوي يضيف في تضاعيف الأحداث تخالفه في الرأي مع أخيه عبد الله لما ظفر بغطفان وساق أموالهم، وأراد أن ينزل فيقسم الغنائم، وينحر ويأكل ، وهو منهم غير بعيد، فقال له دريد: (نشدتك الله ألا تنزل، فإن غطفان ليست بغافلة عن أموالها، وقد ظفرتَ، فأقسم عبد الله لا يريم حتي يأخذ مرباعه[٤]، وينقع نقيعته[٥]، فيأكل ويطعم ويقسم البقية بين أصحابه ...)[٦].

(١) يوم رحرحان : يوم لعامر على تميم، ورحرحان: اسم جبل قريب من عكاظ، خلف عرفات ،(ينظر أيام العرب صـ ٣٤٤) .
(٢) أيام العرب صـ ٣٤٥ .
(٣) يوم اللوي : يوم لغطفان على هوازن، واللوى واد من أودية بني سليم (ينظر أيام العرب صـ ٢٩٣) .
(٤) يريم : يبرح المكان ، والمرباع : ربع الغنيمة وهو حظ الرئيس في الجاهلية .
(٥) النقيعة : ناقة ينحرها الرئيس من وسط الإبل ويصنع منها طعاماً لأصحابه .
(٦) أيام العرب صـ ٢٩٣ .

ومع تخالف دريد مع أخيه في الرأي إلا أنه يبقى معه تضامناً مع العشيرة، حتى تلاحقهم غطفان وعبس وتقاتلهم ويقتل عبد الله (فعطف دريد فذب عن أخيه فلم يغن شيئاً، وجرح دريد وسقط ...)[1].

فصفة التضامن تثري شخصية دريد، حتى أن الناس كفوا عنه يرون أنه قتل، ويمهل حتى الليل فيمشي وهو ينزف، حتى ما كاد يبصر، ويدرك امرأة من هوازن، فتتوجه المرأة إلى الحي فتخبرهم بمكانه فيغسلوا عنه الدم وينجو .

(٤) شخصية البطل في (أيام العرب الجاهلية)

البطل بالمعنى الاصطلاحي هو الشخص الذي يكون ركيزة الأحداث وسبب تطورها، ويستمر ظهوره على مسرح الأحداث "قيادة وحرباً ورأياً ومفاوضة" أكثر من ظهور غيره، فيطغى بحضوره وبصفاته وكلامه وأفعاله على الأشخاص الآخرين، حتى وإن كانوا هم –أيضا– في مقدمة الأحداث، ولا يوجد مقياس دقيق يمكن به التمييز بين الشخصيات الرئيسية (الأبطال)، كما لا يوجد بطل واحد تبنى عليه سيرة كاملة متخطياً العصور والدهور والأماكن والبقاع ، مقارعاً الأبطال والأقران دون فتور ولا كلل إلا في القصص الشعبي مثل (سيرة عنترة بن شداد، سيف بن ذي يزن، أبي زيد الهلالي ....إلخ .

أما أبطال (أيام العرب) فإن الذين يظهرون منهم في أكثر من يوم أو يومين قلة قليلة، ربما لا يتعدون عدد أصابع اليد الواحدة من أمثال:

- قيس بن زهير ، فقد ظهر في يومي (داحس) و(شعب جبلة) .

(١) السابق صـ٢٩٤

- كليب وائل وظهرت شخصيته في يوم (خزاز)[١]، وحرب البسوس .
- خالد بن جعفر العامري ، وظهر في يومي (النفراوات) و(بطن عاقل)[٢]

وتتفاوت أهمية شخصية البطل بين يوم وآخر ،فتراه في يوم محور الأحداث، بينما يكون في يوم آخر مجرد مبديٍ لرأيه فقط .

وأبطال (أيام العرب) –كثر ظهورهم أو قل– لا ينفصلون عن بطونهم وعشائرهم، وقد لا تتوفر البطولة المفردة إلا في شخص مخلوع أو مطرود من القبيلة؛ ربما لشدة قتله وفتكه بداعٍ أو بغير داع، أو لأنه بقتله لأشخاص بعينهم ؛ لم يحسب عواقب قتلهم يوقع القبيلة في شر وبلاء، ويجر عليهم الويلات ... كما جاء في ترجمة (الحارث بن ظالم المري)[٣] أنه (أفتك العرب في الجاهلية)[٤].

فالبطولة إذن في أيام العرب بطولة جماعية، بمعنى أن البطل بقومه، وقومه به، على حد قول دريد بن الصمة :

وَهَل أنا إلَّا من غَزِّيَةَ إن غوتْ غويتُ ، وإن ترشُد غزيةُ أرشُدِ

(١) يوم خزاز : يوم لمعد على مذحج، وخزاز :جبل ما بين البصرة إلى مكة، وكان هذا اليوم من أعظم أيام العرب في الجاهلية، وكانت معد لا تستنصف من اليمن، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى كان هذا اليوم فانتصرت معد، ولم تزل لها المنعة حتى جاء الإسلام (ينظر أيام العرب صـ ١٠٩) .

(٢) بطن عاقل: يوم لذبيان على عامر، وبطن عاقل : موضع على طريق الحاج من البصرة ،(ينظر الأغاني ١٦/١٠، الكامل ٣٣٨/١، العقد الفريد ٣٠٥/٣ .

(٣) أيام العرب صـ ٢٤٢ ،يوم بطن عاقل .

(٤) الأعلام- خير الدين الزركلى ١٥٧/٢ ط دار العلم للملايين –بيروت .

وكان الأبطال أنفسهم يصرحون بذلك (إنما أنا بقومي وقومي بي)، ويصعب أن نستنتج من الأيام صورة مثالية للبطل المقنع المنفرد .

ومن الطريف أن البطل في قصص (أيام العرب) قد يكون إنساناً –كما سبق– وهو الكثير الغالب، وقد يكون حيواناً بوجه من التأويل، ونوع من التمحل، فمثلاً من أبطال قصص "الأيام" الفرس "داحس" .

وربما يذكر داحس (الفرس) من بين الأبطال في قصص الأيام لسببين:

الأول – أن الحرب الطويلة التي ذاقت غطفان ويلاتها، وتفرقت بسببها وتمزقت شر ممزق؛ كانت من أجله .

الثاني– أن قصة ولادته كان لها من الغرابة والأسطورية ما لها، إذ يشرح أبوعبيدة (معمر بن المثنى التيمي) سبب تسميته بـ (داحس) نقلاً عن الكلبي ما مفاده (أن أباه ذا العقال مرت به الفرس جلوى، فلما رآها ودى، فنزا على جلوى فوافق قبولها فأقصَّت[1]، فغضب صاحبه، وطالب بماء فرسه ذي العقال، فمرغ يده في الماء والتراب، وأدخلها في رحم جلوى، فاستخرج ما قدر عليه من مني فحله، ولكن بقي في الرحم منه شيء، فنتج مهر كأنه أبوه ذو العقال، فسمي داحساً لذلك، لأن الدحس هو إدخال الشيء بين الجلد واللحم، وخرج أجود خيول العرب، فرآه قيس بن زهير فرغب فيه ...)[2] .

(١) أقصت : حملت .
(٢) نقائض جرير والفرزدق –أبوعبيدة معمر بن المثنى البصري، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ٨٣/١ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨ .

ثم إن خبر ولادة داحس وحده استغرق عدة صفحات من قصة حرب داحس والغبراء ولا شك أن الخيال الشعبي في القصص يتطلب لحرب أسطورية كهذه (داحس والغبراء) فرساً أسطورياً كهذا (داحس)، لذا يعد من أبطال قصص الأيام .

الفصل الثالث

أسلوب الصياغة الفنية في قصص (أيام العرب الجاهلية)

نسيج القصة هو الأداة اللغوية التي تشمل السرد والوصف والحوار، ووظيفة هذا النسيج خدمة الحدث، إذ يسهم في تطويره ونموه إلى أن يصير كالكائن الحي المميز بخصوصيات محددة .

وللقصة في "أيام العرب " أسلوب متميز عن غيره ببعض الملامح الفنية، إذ أن الأسلوب المتبع في بنائها هو الأسلوب المبني على خطة، تعرف هذه الخطة بالسياق أو الحبكة، وهذه الخطة تبدأ عادة بمقدمة تنتقل منها إلى الحادثة حيث تصل ذروتها ، ثم تصل إلى الحل وهو النهاية "الخاتمة" ، وهي معنية –أيضا– في تناول حدث محدد في لحظة توتر بأقل عدد من الكلمات، لأنها –قبل كل شيء– نص مكثف سريع الإيقاع، فعلي الجملة –في الغالب– مكثف الهوية ، ينأى بنفسه عن أي حشو أو تطويل ليس من ورائه طائل.

وأسلوب القص في "أيام العرب الجاهلية" يتنوع تنوعاً يتوافق مع الحوادث ويتلون بحسب المواقف:

- ففي وصف القتال ،أو تفصيل الاستعداد له ،أو ذكر نتائج الحروب ؛تكثر الجمل الفعلية التي تفيد التجدد والحدوث وتعدد الأحداث المتلاحقة

المتغيرة، كقول الراوي: (كانت بنو عامر بن صعصعة قوماً حُمساً لقاحاً[١]، فلما ملك النعمان بن المنذر، كان يجهز كل عام لطيمة[٢] لتباع بعكاظ، فتعرض لها بنو عامر يوماً، فغضب لذلك النعمان، وبعث إلى (وبرة الكلبي) أخيه لأمه، وبعث إلى صنائعه ووضائعه[٣]، وأرسل إلى بني ضبة بن أد وغيرهم من الرباب وتميم، فأجابوه، وأتاه ضرار بن عمرو الضبي في تسعة من بنيه كلهم فوارس ...)[٤].

- وقوله :(ثم إن حُجراً وفد على أبيه الحارث في مرضه الذي مات فيه، وأقام عنده حتى هلك، ثم أقبل راجعاً إلى بني أسد، وكان يقدم بعض ثقله[٥]أمامه، ويهيأ نزله ثم يجيئ وقد هيئ له من ذلك ما يعجبه فينزل ، ويقدم مثل ذلك إلى ما بين يديه من المنازل، فيضرب له في المنزلة الأخرى...)[٦].

---

(١) الحمس: المتحمسون المتشددون في دينهم، واللقاح: الذين لا يدينون للملوك .

(٢) اللطيمة : عير تحمل المسك .

(٣) الصنائع: جماعة كانوا ينتخبون من بني ثعلبة خاصة كالحرس لا يبرحون باب الملك، والوضائع: ألف رجل من الفرس كانوا يستخدمون في نصرة العرب ، ويستبدلون بمثلهم كل عام .

(٤) ينظر أيام العرب (يوم السلان) صـ ١٠٧، ويوم السلان يوم لبني عامر على النعمان بن المنذر ، والسلان في الأصل بطون من الأرض غامضة ذات شجر ، ثم سميت بها بعض المواطن، (ينظر معجم البلدان) ياقوت الحموي ١٠٤/٥ .

(٥) الثقل: متاع السفر .

(٦)أيام العرب صـ ١١٢ (يوم حجر) ، ويوم حجر : يوم لبني أسد على حجر ملك من ملوك كندة (ينظر الأغاني ٨١/٩ ،والكامل ٣٠٤/١) .

وهكذا يظل الراوي على رصد الأحداث معبراً عنها بفعلية الجملة التي تفيد ما لا يفيده غيرها .

- فإذا رأى الراوي أن يُفصِّل ويوضح، أو أن يؤكد فإنه يلجأ إلى ازدواج الجمل كقوله (...ولما علم امرؤ القيس بمكانهم، أمر بإنزالهم، وتقدم بإكرامهم، والإفضال عليهم ...)[1].

فالجمل السابقة أربع جمل، جاءت فيها الجملة الثانية بمنزلة التوكيد للأولى، والرابعة توكيد للثالثة، إذ لم تزد كل منها على سابقتها شيئاً إلا في مجرد التنغيم الذي يؤول إلى السجع .

- أما إذا كان الموقف إظهاراً للإقناع، والاحتجاج والخطابة؛ فإن الجمل تطول وتتشعب وتثقل مع بعض السجع أيضا، كما في مفاوضة قبيصة بن نعيم الأسدي لامرئ القيس (فخرج عليهم ...، وبَدَر إليه قبيصة وقال: إنك في المحل والقدر، والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه، وتنتقل به أحواله، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ، ولا تذكرة مجرب، ولك من سؤدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، ورجوع من الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك، فوجدت عندك من فضيلة الرأي، وبصيرة الفهم، وكرم الصفح، في الذي كان من الخطْب الجليل الذي عمَّت رزيته نزاراً واليمن،

(١) أيام العرب صـ ١١٧ .

ولم تخصص به كندة دوننا، للشرف البارع كان لحجر التاج والعِمَّة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد، وطيب الشيم ...)[١].

- فإذا كان الموقف موقف قتال وصبر وتجلد؛ كان الكلام أوجز، والجمل أقصر، والفواصل أكثر، والتوقيع أظهر، من ذلك قول هانئ بن مسعود الشيباني في يوم ذي قار[٢] :(يا قوم: مهلك مقدور خير من نجاء معرور[٣]، وإن الحذر لا يدفع القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية لا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر أكرم من الطعن في الدبر، يا قوم جدوا فما من الموت بُد، فتحٌ لو كان له رجال، أسمع صوتاً ولا أرى قوماً، يا آل بكر شدوا واستعدوا، وإلا تشدوا تردوا)[٤].
- ومن ذلك –أيضا– قول شريك بن عمرو بن شراحيل –يوم ذي قار أيضا– :(يا قوم إنما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم، وكذلك أنتم في أعينهم، فعليكم بالصبر، فإن الأسنَّة تردي الأعنَّة، يا آل بكر قُدماً قُدماً)[٥].

(١) أيام العرب صـ ١١٧ .
(٢) يوم ذي قار : لبكر على العجم ، وذوقار: ماء لبكر قريب من الكوفة، ويعد هذا اليوم من مفاخر بكر، ووقعة ذي قار كانت وقد بعث النبي –صلى الله عليه وسلم- وخبر أصحابه بها فقال: (اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا) ينظر أيام العرب صـ٦ ، العقد الفريد ٣٧٤/٣ ، الأغاني ٩٧/٢ ، النقائض ٦٣٨ ، معجم البلدان ٣٥٢/٣ .
(٣) معرور : معاب .
(٤) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣١ .
(٥) السابق صـ ٣١، وقدما قدما : أي تقدموا .

- وإذا كان الكلام في مواقف المباغتة والطروء والفجاءة؛ كان الكلام أشد إيجازاً كقول الراوي:(فلم تؤذنهم بهم إلا والخيل دوائس محاضر[١] بالقوم غديَّة ...)[٢].

فنعت الخيل بالدوائس والمحاضر يصور ويصف التلاحق والقفز عند الهجوم، واستعمال الظرف (غديَّة) يصف المباغتة في الصباح الباكر، فهو أدعى للفجأة والانتصار، فمن فنون الحرب قديماً أن تبدأ الحرب مع أول ضوء النهار، وهذا ما أكده النص القرآني في أكثر من موضع فقال الله –سبحانه– :(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا)[٣]، وقال أيضا :(فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ)[٤]، وعن أنس بن مالك عن طلحة قال: لما صبَّح رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خيبر، وقد أخذوا مساحيهم وغدوا إلى حروثهم وأراضيهم، فلما رأوا النبي –صلى الله عليه وسلم– ولوا مدبرين، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– : (الله أكبر الله أكبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)[٥] .

وهكذا يسير الراوي في سرد أحداث الأيام، فتارة يطيل ، ويوجز أخرى، وثالثة يأتي بالصورة غنية بالإيحاء مع شدة اختصارها ، كالاستعارة في قوله: (حتى قطع العطش أعناقهم فماتوا)، فانظر إلى (قطع العطش أعناقهم) كيف جاءت قليلة المبنى، كثيرة المعنى، غنية الإيحاء، ورابعة ينتقي الفعل انتقاءً ليشعر القارئ والسامع

(١) دوائس : يتبع بعضها بعضاً، والمحضار : الكثير الحضر، والحضر ارتفاع الفرس في عدوه .
(٢) أيام العرب صـ ٢٣٨ .
(٣) سورة العاديات آية ٣ .
(٤) صورة الصافات آية ١٧٧.
(٥) رواه أحمد في مسنده ، وقال هو صحيح على شرط الشيخين .

بمدى السرعة والتلهف إلى تبليغ الخبر، أو بمدى الغضب المتولد من الانفعال النفسي مع تلوين الحركة حين يقول في الحالة الأولى: (فخرج يطير حتى أتى بني عامر عند ناديهم) فعبر بالفعل "يطير" ليكني عن مدى السرعة وشدتها، مع أنه مأخوذ عليه ألا يخبر ولا يدل ، وفي الحالة الثانية يقول: (فنزع رأسه من يدها وخرج)، والحديث عن كليب وائل حين سأل امرأته :من أعز وائل؟ فأجابت : أخواي جساس وهمام، فأتى الراوي بالفعل "نزع" ليبين مقدار غضب كليب على امرأته ، وقد كانت تغسل رأسه وتسرح شعره .

وخامسة ينتقي الراوي الفعل بعناية ليظهر مدى الافتعال والتكلف، وإظهار الإنسان خلاف ما يبطن اعتمالاً وتكلفاً لحاجة في نفسه، كقوله عن حذيفة بن بدر وقد تكلف الحزن على صهره: (...فعصر عينيه وقال: هلك سيدنا...)[1]، فانظر إلى الفعل "عصر" كيف اختزل المشهد والموقف في كلمة .

وقد توجِد التراكيب والجمل عند الراوي من القوة الإيحائية والدلالية ما لم تذكره كتب البلاغة العربية بين صفحاتها ، كقوله على لسان جليلة بنت مرة لأبيها لما رأت أخاها يقبل مسرعاً: (إن ذا لجساس أتى كاشفاً ركبتاه)[2]، فانكشاف الركبتين عند جساس يوحي بالأمر الجلل، وفداحة الخطب ، وعظم الرزية، وهو ما أكده الراوي بقوله على لسان مُرَّة "أبي جساس" :(والله ما خرجت ركبتاه إلا لأمر

(١) أيام العرب صـ ٢٦١ .
(٢) السابق صـ١٤٦، وركبتاه: كتبتها كما جاءت في النص وإن كانت خطأ إعرابيا، والصواب ركبتيه، وجاءت القصة في "الكامل" لابن الأثير بقوله: (بادي الركبتين) .

عظيم)، فإركاض الفرس، وحثه على السير بسرعة شديدة مع كشف الركب يوحي بالأمر العظيم، ولم تذكر كتب البلاغة شيئاً عن ذلك .

وقد يأتي الراوي بالفعل جديد الاستعمال في بابه على غير ما قاله النحاة، وذلك كقوله في وصف نشأة الفرس "داحس" : (وخرج أجود خيول العرب)[1]، فليس الفعل "خرج" من أفعال التحويل أو الشروع .

وأخيراً ربما أتى الراوي بالتعبير سهلاً قريب التناول ، تحسبه كلاماً عادياً ، إلا أنه بعيد عن السطحية والإسفاف والمرزول، له على غيره من الكلام ميزة كقوله: (واكتب إليَّ بخبرك من منزلٍ منزل)[2]، فهذا التعبير أوجز وأفضل من قوله مثلاً: "واكتب إليَّ من كل منزل تنزل به"، وهو كذلك ليس بعده في الوضوح والدلالة على المعنى المراد .

هذا بعض ما كان من مميزات الصياغة الفية في (أيام العرب)، وكما سبق لا تخلو صفحة من تعبير، بل لا يخلو سطر من كلمة تدل على عناية الراوي بأسلوبه، وانتقاء كلماته بعناية تلفت الانتباه، وثير الإعجاب .

(١) نقائض جرير والفرزدق- أبو عبيدة ١/ ٨٣ .
(٢) أيام العرب صـ ١٢٢ .

الخاتمــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

فإن أيام العرب جزء من الرصيد الثقافي العربي، لما لها من منهجية خاصة اتبعها الرواة في تأليف هذه النصوص، وفي رصدها وتصويرها للمجتمع الجاهلي في سلمه وحربه على ما تقتضيه طبيعة البداوة، ولما لها من شأن كبير عند المؤرخين العرب الأولين، الذين كانوا يصعدون في تأريخهم لحياة العرب إلى البشرية الأولى، إلى العماليق وعاد وثمود، ويعرِّجون نزولاً على أخبار طسم وجديس وغيرهما من القبائل التي بادت، ثم يهتمون بالقبائل القائمة فيدرجون أيامها في صلب التاريخ ويفصلون أحداثها بنفس العناية التي يولونها للفتوحات والمغازي الإسلامية، أو حتى أخبار العصور والدول المتقدمة من عمر الإسلام كالدولة الأموية والعباسية.

إلا أن اهتمام المؤرخين بروايات الأيام لا يجبرنا -بالضرورة- على تقبلها منهم كما وردت، وتصديق كل ما ترويه لنا من أسباب الحروب أو نتائجها، وتشعب الأحداث وتفاصيلها، كما لو كانت تاريخاً مرتباً مضبوطاً، في نصوص شبه تاريخية تقع في مرحلة وسط بين الأسطورة والحقيقة، لأنها -كثيراً- تميل إلى الإبهام والتضخيم، إلا أنها -في المجمل- تعطينا صورة أولية عن المجتمع الجاهلي ، هذه الصورة تواصلت ملامحها في المجتمع الإسلامي الأول بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-مباشرة، حين عادت العصبيات القديمة إلى شدتها، وصار التنافس

على الحكم يوقظ ويغذي الإحن والأحقاد الدفينة التي كانت تمزق العرب بين قيسية ويمنية، وتميمية وبكرية ....إلخ .

بالإضافة إلى أنها تعطينا فرصة كبيرة لاستنباط عناصر الفن القصصي فيها –لا سيما من جهتي التركيب القصصي وأسلوب الصياغة، وهي كذلك تضفي على الأخبار التي فيها جواً ملحمياً، وتصبغ أعمال الأشخاص بأبعاد بطولية، وتسجل كل ما يصدر عنهم من كلمات ؛ لأن المواقف الحاسمة تُنطق المرء بالكلام البليغ، فيصير كأنه الحكمة أو يصير مثلاً سائراً –وهو كثير في الأيام– خاصة ما ورد على لسان رؤساء أو حكماء القبائل، حتى أن الراوي نفسه كان يعقب على بعض الجمل أحيانا بقوله: (فصارت مثلاً)،..إلى غير ذلك من الأشياء التي لولا ورود الأيام لم تدرك الحاجة .

ومن الجدير بالذكر هنا أن كل ما جاء في سطور وصفحات البحث من ملاحظات على التركيب القصصي، وأسلوب الصياغة في أدب أيام العرب بصفة عامة؛ لم يكن ليتسم بسمة الإحاطة بكل ما في الأيام ، وإنما هي إشارات ربما تلفت النظر إلى ضرورة وجود اهتمام من الباحثين بهذه النصوص لاستخراج ما فيها .

والحمد لله رب العالمين

المراجـع

١- الأعلام – خير الدين الزركلى ط دار العلم للملايين – بيروت .
٢- الأغاني – أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ط دار الكتب العلمية بيروت.
٣- الأمالي - أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون، ط – دار الكتب المصرية .
٤- أيام العرب في الجاهلية – محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوى، محمد أبو الفضل إبراهيم- ط- المكتبة العصرية –بيروت .
٥- تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة -خيري دومة ،ط- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨.
٦- تطور فن القصة القصيرة في مصر - سيد حامد النساج ،ط- مكتبة غريب .
٧- تفسير الأحلام – سيجموند فرويد، ترجمة مصطفى صفوان ن د-ت .
٨- تفسير الكشاف – أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ط- مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٦٦ .
٩- الحبكة والعقدة المعنى والنوع والخصائص – يوسف حطيني ، د – ت .
١٠- دراسات في الرواية والقصة القصيرة – يوسف الشاروني ، ط- مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٧ .
١١- العقد الفريد – أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي ، ط – دار الفكر- بيروت .
١٢- فن القصة القصيرة – رشاد رشدي ، ط- القاهرة ١٩٥٧ .
١٣- فن القصة القصيرة في أدبنا الحديث – عبد الحميد يونس ، ط – دار المعارف -مصر١٩٧٣ .
١٤- القصة القصيرة في مصر دراسة في تأصيل فن أدبي – شكري محمد عياد ،ط – جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٥- الكامل في التاريخ - أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري، ط دار الكتاب العربي – لبنان.
١٦- لسان العرب – جمال الدين بن منظور الإفريقي ،ط – دار المعارف – مصر .
١٧- مجلة رابطة العالم الإسلامي – عدد ٢٨ صادر في ٢٠١٣/٦/١٧ .
١٨- مجمع الأمثال – أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط – دار المعرفة لبنان ٢٠٠٥ .
١٩- معجم البلدان - شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، ط- دار صادر – بيروت ١٩٩٣ .
٢٠- معضلة مفهوم الحداثة من منظور مقارن – جهاد عودة – الناشر المكتب العربي للمعارف .
٢١- النقد الأدبي الحديث – محمد غنيمي هلال ، ط بيروت ١٩٧٣ .
٢٢- نقائض جرير والفرزدق – أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ،ط – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨ .